

## المرجعية الإسلامية وأثرها في الحفاظ على هوية الأمة ووحدتها (الأزهر نموذجاً)

د. رضوان أحمد شمسان الشيباني

أستاذ الفكر الإسلامي المشارك بكلية التربية

جامعة الحديدة

### ملخص البحث

نظراً لما يمثله الدين من أهمية كبرى في حياة الإنسان ، فإنه يحاول ضبط سلوكه ونشاطاته وفقاً لتعاليمه مما يجعله مرجعية له في كافة مجالات الحياة ، والمرجعية الإسلامية أكثر أهمية للمسلم ، فقد أسهمت في الماضي البعيد والحاضر القريب في ضبط حركة المجتمعات الإسلامية كما أسهمت في الحفاظ على هوية هذه المجتمعات. ولأهمية هذا الموضوع فقد تم تناوله بالدراسة من حيث النشأة والمراحل لتي مرت بها المرجعية والتحديات التي تواجهها والدور الذي تقوم به وانتهت الدراسة إلى نتائج مهمة منها:

ضرورة الحفاظ على هذه المرجعية ودعمها وعدم التدخل في شؤونها كونها تمثل المؤشر الحقيقي لمدى نهضة الأمة وانتظام أحوالها وكونها أيضاً المسؤولة عن الحفاظ على هويتها.

### المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد .

تعتبر المرجعية الدينية الإسلامية اليوم أحد أهم القضايا التي يجب الالتفات إليها والبحث فيها؛ نظراً لخطورة ما يترتب على غيابها من آثار جسيمة تؤدي إلى تفرق الأمة ، وانشغالها بالخوض في صراعات جانبية لا تعود بأي نفع، وإذا كانت الأمة الإسلامية بكل مذاهبها تتفق تقريباً على أن الكتاب والسنة هما المرجعان الأساسيان لكل المسلمين، فإن المذاهب قد اختلفت فيمن يمثل هذه المرجعية من المؤسسات ، حيث اعتبر أهل السنة أن العلماء الذين ترتضيهم الأمة ، والذين يعملون بكتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - هما المرجعية . لذا ظل العلماء على مدى قرون طويلة يمثلون المرجعية الرئيسية لكل المسلمين على اختلاف بلدانهم وأزمانهم ، فهم - كما جاء في الأثر - ورثة الأنبياء<sup>(1)</sup>، فقد كانت الأمة تلجأ إليهم لحل مشكلاتها في جميع الأحوال والمجالات ، ولم يُستثنَ أي مجال من الرجوع إليهم فيه سواء

(1) يقول النبي ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه فمّن أخذه بحظ وافر". رواه الترمذي وصححه الألباني.

المجالات السياسية أو الاجتماعية.. أو غير ذلك . وقد رأيت أن أشير إلى بعض العلماء المراجع الذين كان لهم دور كبير في الحفاظ على هوية الأمة والدفاع عنها.

أما الشيعة فقد أضفوا على مرجعيتهم قداسة تجعل من الصعوبة بمكان مراجعة فتاواها أو الاعتراض عليها، ومع ذلك فإن التنافس بين المرجعيات الشيعية قائم. الأمر الذي أدى الى استقطاب لجماهير الشيعة وهذا ما سنشير إليه في موضعه إن شاء الله .

ولم يُنرَ الخلاف حول مرجعية العلماء في الماضي غير أنه بعد الغزو الاستعماري ، وظهور العلمانية في العالم العربي الإسلامي، ظهرت جماعات تنتسب إلى الإسلام - شكلاً لا مضموناً . تدعو إلى فصل الدين عن السياسة، وهي الركيزة الأساسية للعلمانية. وتطالب القوى العلمانية بتحديد سلطة العلماء ، بل ونزع صفة الرقابة والمرجعية عنهم.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع رأينا أن نتناوله في مبحثين :

**المبحث الأول:** نشأة المرجعية الإسلامية وتطورها، وذلك من خلال مطلبين:

المطلب الأول : المراحل التي مرت بها المرجعية.

المطلب الثاني : دور المرجعية في الحفاظ على الهوية الإسلامية.

**المبحث الثاني:** ويتناول دور المرجعية في الحفاظ على وحدة الأمة وذلك من خلال مطلبين:

المطلب الأول : التحديات التي تواجه المرجعية.

المطلب الثاني : دور الأزهر في التصدي للاستبداد السياسي.

وقد اخترنا الأزهر نموذجاً للمرجعية كونه :

- أولاً : أنه من أقدم المرجعيات الدينية في العالم الإسلامي .
- ثانياً : أن مصر التي تحتضنه تمثل البلد الأكثر ثقلًا وتأثيراً في العالم الإسلامي وليس أدلّ من ذلك تمكن الأزهر من انتزاع الرئاسة الدينية عقب ثورات الربيع العربي حتى أصبح مرجعاً ليس دينياً فقط بل مرجعاً وطنياً إلى درجة أن الأقباط قبلوا بمبادرته في الجانب السياسي. ولا يجب الخلط بين مواقف الأزهر مؤسسةً دينية مرجعية وبين مواقف بعض شيوخه الذين رضخوا لضغوطات الاستبداد وكانوا سبباً في أضعاف تأثيره.

وقد اتبع الباحث في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي مع عرض لبعض الشواهد التاريخية عند اللزوم.

نسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

## تمهيد: مفهوم المرجعية الإسلامية.

تطلق كلمة المرجعية على جوانب كثيرة كالدينية والسياسية وحتى الأخلاقية، وقد تستمد المرجعية قوتها من نصوص مكتوبة كالدساتير أو المعاهدات والاتفاقات الدولية وهي ما يطلق عليه الشرعية الدولية، وقد تستمد قدسيتهما من النصوص الدينية، سواء كانت هذه النصوص سماوية أو وضعية باسم الدين.

### أولاً : تعريف المرجعية:

1. **المرجعية لغةً** : من رَجَعَ أو مرجعاً، ومرجعية ورُجعى ، ورجعاًناً ( ضد ) انصرف : أي عاد ومنه قوله تعالى: " إنا لله وإنا إليه راجعون"<sup>(1)</sup>.

وفي المعجم الوجيز: أرجع الشيء : رده، وراجع فلان في أمره مراجعة ورجاعاً: رجع إليه وشاوره<sup>(2)</sup>. ولم ترد كلمة المرجعية في القرآن الكريم إلا أن كلمات تحمل نفس المعنى كالتحكيم و الاحتكام تؤدي نفس المفهوم.

يقول سبحانه وتعالى: ( فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)<sup>(3)</sup>؛ ويقول سبحانه: (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول)<sup>(4)</sup>.

### 2. المرجعية اصطلاحاً:

الأخذ من القرآن والسنة والحكم بهما، أو: الاحتكام إلى القرآن والسنة والتسليم بذلك<sup>(5)</sup>. ومن النصوص السابقة يتبين أن المرجعية تمثل الجهة التنفيذية المترجمة للنصوص الدينية المقدسة وتتولى الحكم بها بإنزالها على الواقع المعروض أمامها، وهي بذلك لا تبتدع حكماً وإنما تتبع نصاً أو تجتهد في إطار النص في استنباط الأحكام الشرعية.

## المبحث الأول

### نشأة المرجعية الإسلامية وتطورها

جرت سنة الله في كونه أن يختلف خلقه، قال تعالى: (ولا يزالون مختلفين)<sup>(6)</sup> ولذا فقد شرع لهم الشرائع وأنزل الكتب وأرسل الرسل ليكونوا حكماً بين هؤلاء المختلفين، وحتى أولئك الذين لم يؤمنوا بهذه الكتب أو تلك الرسل فإنهم يتوصلون إلى وضع نظم أو قوانين تصبح لها قداسة المرجعية.

ولو تتبعنا تاريخ الشعوب والأمم منذ فجر التاريخ، لوجدنا أن هناك مرجعيات تُسلم لها هذه الشعوب قيادتها فتعاليم كنفوشيوس ظلت مرجعية في الصين القديمة، وتعاليم زرادشت ظلت حاكماً في فارس

(1) المنجد في اللغة الإعلام، دار المشرق بيروت، ط 28-1926م، ص939.

(2) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، المركز العربي للثقافة والعلوم - بيروت، ط بدون، ص256.

(3) النساء آية: (65)

(4) النساء آية: (59).

(5) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم- القاهرة، ط بدون-1997م، ج4/ص2383.

(6) هود آية: (118)

القديمة، وكانت طبقة رجال الدين تمثل المرجعية لكثير من الأمم حيث زعموا أنهم وسطاء بين الله والناس. فقد قالوا العبارة المشهورة "الكاهن نائب الله والملك ظل الله في أرضه".<sup>(1)</sup> وقد ظلت المقولة السابقة تطبق في كثير من الأديان والأمثلة على ذلك نلاحظها في الهند حيث كان الإله تحت اسم (برهما) ولكن انحدرت العقيدة هناك إلى الظن بأن (برهما) حل في (الرهما ثان) وهو رئيس الكهنة حلولا وراثياً يتوارثه بعد الكاهن الأعظم و من يحل محله، ثم اخترعوا نظام الطبقات ليحصروا المرجعية الدينية في طبقة معينة، وقد تتصارع هذه الطبقة مع الملوك والحكام في سبيل الإستنثار بالتحكم بالناس، بل إن بعض الملوك كان يُصرُّ على الجمع بين السلطتين الزمنية والمرجعية الدينية ويصبغ على أحكامه قداسة تمنع من نقضها فضلاً عن مناقشتها<sup>(2)</sup>.

### المطلب الأول : المراحل التي مرت بها المرجعية الإسلامية.

نشأت المرجعية الإسلامية وتطورت عبر مراحلٍ زمنية مختلفة ولكل مرحلة ظروفها الخاصة، فقد ظهرت مرجعية العلماء في أحلك الظروف وخاصة في غياب السلطة السياسية نتيجة لغزو خارجي - كما حدث عند سقوط بغداد - حيث أنهى الغزو التتري السلطة السياسية . ولم يكن من مرجعية سوى العلماء الذين بقوا على قيد الحياة بعد أن أعدم التتار الكثير منهم.

غير أن هذه المرجعية تجسدت بعد ذلك في شخصيات مثل العز بن عبد السلام الذي أسهمت مواقفه وفتواه في التصدي للغزو التتري على مصر، وكانت سبباً في هزيمة التتار بعد ذلك ، وكذلك ابن تيمية الذي أفتى بكفر التتار على الرغم من زعمهم أنهم قد أسلموا، وقد عزز بجهاده ضد التتار وقيادة معركة (شقحب)<sup>(3)</sup> في رمضان من سنة (702هـ) عزز ثقة الناس بمرجعيتهم والاحتكام إلى فتواه ليس في الجانب الديني فقط بل حتى في الجانب السياسي<sup>(4)</sup>.

وقد تطورت المرجعية على مدى قرون حيث ظهرت مؤسسات دينية في أكثر من بلد أصبحت فيما بعد تمثل المرجعية لشعوب هذه البلدان مثل الأزهر الشريف في القاهرة، وجامعة الزيتونة في تونس، وجامعة القرويين في المغرب، وجمعية العلماء في الجزائر، وقد مثلت كل هذه المرجعيات لتلك المراحل التاريخية التي سبق الإشارة إليها.

### أولاً : المرجعية بين السنة والشيعه.

ومما سبق يمكن القول أن المرجعية الدينية (السنية) قد تطورت عبر مراحل مختلفة وأن هذا التطور لا زال مستمراً كلما وجدت ظروف مناسبة له، فقد ظهرت مرجعية في العراق باسم هيئة علماء المسلمين بعد الغزو الأمريكي للعراق على (2003م) كما ظهر أيضاً اتحاد علماء المسلمين والذي يرأسه الشيخ

(1) الإسلام والأديان، مصطفى حلمي، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع - القاهرة، ط1-1990م، ص25-26.

(2) المرجع نفسه والصفحة.

(3) معركة وقعت بين التتار والمسلمين في 2 من رمضان سنة 702هـ / 1301م وشقحب هي قرية في شمال سوريا.

(4) حول حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، محمد بن سعيد بن رسلان، مكتبة المنار- القاهرة، ط2- 2002م، ص24.

القرضاوي والذي يمثل مرجعية عامة تحظى باحترام معظم المسلمين، وكان له تأثير كبير على ثورات الربيع العربي.

وإذا كانت هذه الحال بالنسبة للمرجعية عند السنة، فإن الشيعة قد أضفوا نوعاً من القداسة على علمائهم، وألزموا أنفسهم بإتباع هؤلاء العلماء بناءً على نصوص تضيي قداسة عليهم وتجعل متابعتهم جزءاً من الدين، ثم تطور الحال إلى جعل الحوزات العلمية هي المرجعية الرئيسية في المذهب الشيعي، وإن كانت في حقيقة الأمر تختزل في شخص العالم الذي يقود الحوزة.

وقد وفر الاستقلال المالي لهذه الحوزات<sup>1</sup> قوة مادية في مواجهة الدولة، مكّنها من قيادة ثورة شعبية في إيران، ولم تكن المرجعية الشيعية تؤمن أو تدعو إلى قيام الدولة في غياب الإمام الثاني عشر المعصوم (المهدي المنتظر) بل إن قيام الجمعة لم يكن جائزاً، غير أن فكرة ولاية الفقيه التي أحيها الخميني، وهي نظرية ظهرت في الحوزات العلمية قبل حوالي مئتي عام على يد الشيخ (أحمد المراقى) حين صرح بأن على الفقهاء أن يمارسوا الحكم بأنفسهم<sup>(2)</sup>، ثم جاء الخميني ليضع لها شروطاً وتصوراً أكثر وضوحاً، ومع ذلك فهي لم تتحدد تماماً، حيث لا تزال في مرحلة التطور وتثبت هذه النظرية وجهتي نظر حول صلاحية الإمام المنصوب (الفقيه) عن الإمام الغائب (المهدي)، وهل يمثل الله أو يمثل الإمام الغائب (المهدي) أو يمثل الشعب.

يقول الخميني في كتابه (الحكومة الإسلامية) "الفقهاء اليوم هم الحجة على الناس كما كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) حجة الله عليهم، وكل ما كان يناط بالنبي (صلى الله عليه وسلم) فقد أناطه الأئمة بالفقهاء من بعدهم، فهم المرجع في جميع الأمور والمشكلات والمعضلات، وإليهم قد فوضت الحكومة وولاية الناس، وسياستهم والجبابة والإنفاق، وكل من يتخلف عن طاعتهم فإن الله يأخذه ويحاسبه على ذلك."<sup>(3)</sup>

ومع ذلك فإن هذه النظرية لم تستقر حتى الآن، إذ تعرضت للنقد من قبل بعض علماء الشيعة أنفسهم<sup>(4)</sup>.

### ثانياً: مرجعية الشيعة بين قُم والنجف.

نجح علماء الشيعة كما يقول (فريتس شيببات)<sup>(5)</sup> في المحافظة على المكانة والتأثير الذي لهم، وفي الاستقلال عن الدولة القائمة التي اعتبروها غير شرعية، وبتحصيلهم ضرائب خاصة بهم، ووضعهم كل ثرواتهم تحت إشرافهم ورقابتهم، مما أمكنهم - وهم في ذلك يمثلون الجماعة الوحيدة في الإسلام. أن

1 ( الحوزة العلمية عند الشيعة الإثنا عشرية ومقر المرجع الأعلى وقد تعددت الحوازات بتعدد المراجع وأعظم مرجعية للشيعة في العراق الآن هو السيد السستاني.  
2) عواند الأيام، أحمد بن محمد المراقى، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، ط1- 1917م، ص538، 559.  
3) الحكومة الإسلامية، آية الله، تعليق محمد أحمد الخطيب، دار عمار للنشر والتوزيع - الأردن، ط بدون- 1986، ص72.  
4) الشيعة والتصحيح، موسى الموسوي، ط بدون- 1988، ص96.  
5) الإسلام شريكاً، فريتس شيببات، عالم المعرفة - الكويت، ط بدون - 2004م، ص136.

يقيموا ما يشبه الكنيسة أو المؤسسة الدينية التي تحافظ على استقلالها في مواجهة الدولة. ونظراً لأهمية مرجعية الحوزة العلمية لدى الشيعة، فقد سعى شيعة إيران بعد الثورة الإسلامية إلى نقل المرجعية إلى (قم - إيران) بدلاً من النجف الأشرف في العراق، وقد قوبل هذا الطرح بالرفض القاطع من قبل علماء النجف الأشرف، غير أنه عاد من جديد بعد وفاة الإمام الخوئي<sup>(1)</sup>، آخر أكبر المراجع الشيعية في العالم ولا تزال مسألة المرجعية غير محسومة حتى الآن، مع أن المرجعية الشيعية قد نقلت من بغداد بعد سقوط سلطة البويهيين عام (448هـ) إلى النجف، وظلت تنتقل داخل العراق بين الحلة وكربلاء وسامراء، ثم استقرت في النجف، وبقيت إلى اليوم، غير أن الحوزة العلمية في العراق قد انقسمت أخيراً، وظهر هذا الانقسام في الصراع الدائر بين قادات الحوزات: السيستاني، ومقتدى الصدر، وعبد المجيد الخوئي الذي تم قتله فور عودته من المنفى بعد سقوط نظام صدام، وهناك أيضاً بعض علماء من الشيعة الأقل شهرة ممن يسعون لتبوء مكانه. تصل بهم إلى المرجعية.

وهذا الصراع حول قيادة المرجعية الشيعية في العراق، والذي ظهر حالياً في اقتتال الأتباع، يعود سببه إلى جباية الخمس الذي مثل القوة الحقيقية لأي مرجعية. وفي تقديرنا أن الأمر لن يحسم في المنظور القريب، وأن مدينة قم ستصبح في ظل الخلاف الدائم في النجف، مؤهلة لأن تقود المرجعية الشيعية، إذا لم يحسم هذا الخلاف بين علماء النجف.

### ثالثاً: المرجعية السنية في العراق.

وإذا كنا قد ذكرنا فيما سبق الأزهر مثلاً للمرجعية السنية في مصر، فإنه لا بد من الإشارة إلى هيئة علماء المسلمين العراقية، والتي ظهرت أخيراً بوصفها مرجعية للمسلمين السنة في العراق، وبرز دورها في حل أزمة الفلوجة، وظهرت قدرتها على حشد الأتباع وتوجيههم في الاتجاه الذي ترى فيه خدمة الإسلام قد أصبح لها تأثير كبير في سير الأمور في العراق وحتى السياسية منها.

غير أننا نتوقع أن التيار العلماني الرسمي وغير الرسمي، سيسعى بكل قوة إلى الحيلولة دون تكوّن مثل هذه المرجعية، حيث أن طروحاتهم الفكرية لا تقبل التعايش مع مثل هذه المرجعيات، فهذه الطروحات تُصرّ على اعتبار الإسلام كالمسيحية، وعليه يجب أن تفصل السياسة عن الدين.

وقد تبني هذه الطروحات بعض زعماء البلاد الإسلامية كالسادات مثلاً، الذي أطلق من على منبر مجلس الشعب مقولة " لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة" وهذا طرح خطير، يهدف بالدرجة الأولى إلى تخلص الأنظمة من المرجعية الدينية والشرعية، والتي تمثل رقابة حقيقية على هذه الأنظمة.

(1) الخوئي: أبو القاسم بن علي أكبر بن هاشم تاج الدين الموسوي (1899-1992م): هو مرجع دين شيعي إيراني سابق، كان يترأس الحوزة العلمية بمدينة العراق، وكان مرجعاً وزعيماً لملايين الشيعة الاثني عشرية في العراق وإيران والخليج وغيرها من المناطق.

والأغرب من ذلك كله أن هذه الأنظمة تستمد شرعيتها في الحكم من الإسلام ، وتتص دساتيرها على أن الإسلام دين الدولة، ثم وبعد تحقق هذه الشرعية ترفض بكل قوة مرجعية الإسلام ورقابته. ومع ذلك فإننا نتوقع أن الوقت لن يطول حتى تظهر مرجعيات مقبولة وقوية، كذلك التي ظهرت في العراق باسم (هيئة علماء المسلمين) في ظل الاحتلال الأمريكي، أو تلك التي ظهرت في الجزائر بنفس الاسم على يد عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي في ظل الاحتلال الفرنسي. وفي اليمن ظهرت جمعية علماء اليمن وهي موضع احترام كبير لدى اليمنيين ولها مواقف من قضايا كثيرة أسهمت في الحفاظ على الهوية الإسلامية لليمن.

## المطلب الثاني

### دور المرجعية في الحفاظ على الهوية الإسلامية

لقد أدرك العلماء المعترفون الأوائل أهمية المرجعية ودورها في الحفاظ على هوية الأمة لذا فقد كان أحدهم يتعرض لصنوف الاضطهاد والعذاب لأجل أن يتزحزح عن مواقفه وثوابته الدينية ولكنهم كانوا يتمسكون بمبادئ الإسلام؛ لعلمهم أنهم إن تراجعوا قيد أنملة فإن الناس الذين يتقون بعلمهم ويرجعون إليهم لن يتقوا بعد ذلك بشيء، وهذا الأمر حمل هؤلاء العلماء على الثبات على موقفهم فرغبوا عن الرخصة إلى العزيمة خوفاً على عامة الناس من الاقتتان، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وصدعوا بالحق دون أن يخافوا في الله لومة لائم، وقد استمر على نهجهم علماء معاصرون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما جعل للمرجعية اتصال بين القديم والمعاصر.

#### أولاً : دور المرجعية الإسلامية قديماً.

لقد كان رسول الله ﷺ في عصره هو المرجعية لكل المسلمين باعتباره المفسر للقرآن الكريم ثم كان الخلفاء الراشدون ومعهم الصحابة رضي الله عنهم كابن عباس، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب وغيرهم مراجع للناس فيما يهمهم من أمور الدين ، وظهر بعد ذلك التابعون وكان منهم علماء تصدوا للإفتاء كطائوس بن كيسان وسعيد بن المسيب وغيرهم ثم ظهرت المـاهب الفقهية وكان الأئمة الأربعة ثم جاء من بعدهم علماء يمثلون مراجع للناس وكان أشهرهم:

#### 1. الإمام أحمد بن حنبل : ت 241 هـ .

وقف هذا الإمام الجليل موقفاً لا يزال التاريخ يذكره له عند فتنة خلق القرآن ورفض القول بذلك حسب طلب بعض خلفاء بني العباس الذين أغروه في البداية ثم عذبوه حتى يُسلم بهذا القول. ولكن الإمام رفض رغم التعذيب المستمر له في السجن حتى أن السجن أشفق عليه وطلب منه الاستجابة لطلبهم ولكنه طلب من السجن أن ينظر من نافذة الحبس ويصف ما يراه فقال أن هناك أكثر من مأتين طالب من

طلبة العلم بأيديهم المحابر والصحف ينتظرون ما سيقوله الإمام في هذه المسألة. وقد روى عبد الله بن أحمد بن حنبل أن مساجين المطامير<sup>(1)</sup> والسجون كتبوا إلى أبيه يقولون " إن رجعت عن مقالتك - أن القرآن كلام الله غير مخلوق - ارتدنا عن الإسلام"<sup>(2)</sup>.

وهذا يدل أن اتباع هؤلاء العلماء ليسوا فقط من طلبة العلم أو من العامة ولكنهم يمثلون كافة الفئات والطبقات بما في ذلك أصحاب السوابق كما جاء في النص الذي أوردناه سابقاً.

## 2. العز بن عبد السلام : ت 660هـ / 1262م.

تعرض الإمام العز بسبب ثباته على الحق إلى الكثير من الأذى، إلى درجة منعه من الإفتاء، أو الاجتماع بالآخرين كما أجبر على لزوم بيته<sup>(3)</sup>، ولكنه تمكن بفضل الله ثم بفضل صموده وتضامن عدد من العلماء معه من الخروج و تجاوز تلك المحن وإرجاع أولي الأمر إلى سبيل الحق.

فمن ذلك أنه عندما سلم الملك الصالح عماد الدين إسماعيل<sup>(4)</sup> عددا من أهم قلاع المسلمين للصليبيين سنة (639هـ/1241م)<sup>(5)</sup>، وأذن للفرنجة في دخول دمشق وشراء السلاح، فأكثروا من ابتياع الأسلحة، وآلات الحرب من أهل دمشق، فأنكر المسلمون ذلك، ومشى أهل الدين منهم إلى العلماء، واستفتوهم، فأفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للفرنج، وقطع من الخطبة بجامع دمشق الدعاء للصالح إسماعيل وصار يدعو في الخطبة بدعاء منه: " اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد تعز فيه أوليائك، وتدل فيه أعدائك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهى عن معصيتك، والناس يضجون بالدعاء"<sup>(6)</sup>.

وعندما علم بذلك الصالح إسماعيل أمر بحبسه هو والشيخ ابن الحاجب الذي أنكر معه ما فعله الصالح إسماعيل، ثم أفرج عنهما وفرض عليهما الإقامة الجبرية بعد أن عزل الإمام العز بن عبد السلام عن الخطابة، ومنعه من الفتوى<sup>(7)</sup>. وفي مصر تمكن الإمام العز بن عبد السلام من القيام بدور بارز في ضبط الأوضاع السياسية لدولة المماليك في سبيل تهيتهم للمواجهة مع المغول، ففي أواخر سنة (657هـ) عقد الأمراء والعلماء اجتماعاً لمناقشة الأوضاع وكيفية مواجهتها "فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السلام، وخلاصة ما قال : أنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم، وجاز لكم

(1) مساجين المطامير: هم المحكوم عليهم بالسجن المؤبد وسمو بذلك كونهم يوضعون في حفر تظمر وتغلق عليهم.  
(2) عيون التواريخ، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق غيف نانف حاطوم، دار الثقافة - بيروت، ط بدون- 1996م، ص25-26.  
(3) طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، ط بدون، ج8/ص235.  
(4) الملك الصالح إسماعيل بن السلطان العادل الأيوبي (535-648هـ/1237-1250م) صاحب دمشق وبعليك تورط في تحالفات مع الصليبيين ضد بقية أمراء الأيوبيين، أسر في الحرب بين الأيوبيين والمماليك سنة (648هـ/1250م) وقتل بعدها؛ (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار إحياء الكتب العربي- بيروت، ط2-1990م، ج47/ص382-383).  
(5) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، محمد بن سالم بن واصل، تحقيق: حسنين محمد ربيع، ط بدون، ج1/ص302.  
(6) السلوك لمعرفة دول الملوك، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية- القاهرة، ط3-2006م، ج1/ص304.  
(7) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وتبيعوا ما لكم من الحوائص المذهبية<sup>(1)</sup>، والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ويتساوون هم والعامه، وأما أخذ الأموال من العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا<sup>(2)</sup>. وكانت بركة هذه الفتوى نصراً للمسلمين على التتار في معركة عين جالوت.

### 3. شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحارني: ت 728هـ / 1328م.

ظهر هذا العالم الجليل في ظروف غاية في الخطورة على الأمة الإسلامية تمثلت في غزو التتار لدار الإسلام حتى أصبح الناس بين هارب ومستسلم، إضافة إلى انتشار البدع والخرافات. فكان عليه أن يحارب على جبهات مختلفة، فقد نذبه نائب السلطان على الشام أن يركب على البريد إلى مصر يستحث السلطان أن يجيء بالجيش لإتقاذ الشام، وفي القاهرة قال الشيخ للسلطان: " إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمائته، أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن، ثم قال: لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه، واستصركم أهله، وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه، وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنهم؟! وقوى جأشهم، وضمن لهم النصر هذه الكرة، فخرجوا إلى الشام، وكان الظفر والنصر". ومن ذلك أن الشيخ لم يكتف بالتحريض والتعبئة والسعاية للحرب ضد التتار، بل قاتل بنفسه فكان طليعة، وكان بطلاً، رحمه الله، فقد ألقى بنفسه في الميدان، في رمضان سنة (702هـ) في موقعة " شقحب" التي جمع فيها التتار جموعهم، واستعدوا لها بكل قواهم، والتقى الجمعان، واشتد القتال، ووقف الشيخ موقف الموت، وأبلى بلاءً حسناً، واستمر القتال طوال اليوم الرابع من رمضان، حتى إذا جاء العصر ظهر جند مصر و الشام، وانحسر جند التتار فلتجؤوا إلى اقتحام الجبال والتلال، وجند السلطان الناصر، أو بالأحرى، جند ابن تيمية وراءهم يضربون أقبعتهم، ويرمونهم عن قوس واحدة، حتى انبلج الفجر، وقد انكشفت العمة، وزال خطر التتار من بعدها، وكانت ثاني مرة يُمنون فيها بالهزيمة، وآخر مرة يُغيبون. فيها على المسلمين<sup>(3)</sup>. وقد تعدت مواقفه في رفع الظلم ومحاربه إلى أهل الذمة وذلك حين تصدى بقوة لمحاولة وزير الملك الناصر محمد بن قلاوون زيادة الجزية على أهل الذمة واضطهادهم<sup>(4)</sup>.

(1) الحوائص جمع حياصة وهي الحزام، يلبسها الملك للأمرء، وهي تختلف حسب مراتبهم، فمنها ما يكون من ذهب مرصع بفصوص ومنها ما يكون من غير ذلك؛ (صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، أبو العباس أحمد بن علي الفلقشندي، دار الكتب المصرية- القاهرة. ط1- 1922م، ج4/ص55).

(2) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، تقديم: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1- 1992م، ج7/ص67-68.

(3) حول حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص23-25.

(4) فصول في الثقافة والأدب، الشيخ علي الطنطاوي، جمع مجاهد مأمون ط (1) 2007م، دار المنارة جده ص 35.

## ثانيا: دور المرجعية الإسلامية في العصر الحديث.

وفي العصر الحديث مثل الأزهر أكبر المرجعيات الإسلامية عبر مواقف عديدة سجلت لعدد من علمائه ضد الاحتلال الفرنسي والبريطاني حيث قاد المقاومة ضد المحتلين، ووقف بقوة ضد المستبدين. ففي مواجهة الاحتلال الفرنسي سنة 1798م انطلق رجال الأزهر- شيوخه وطلابه - في شوارع منطقة الأزهر يتنادون إلى الثورة، ويلهبون مشاعر الأهلين بخطبهم الحماسية، ويدعونهم إلى الجهاد المقدس ضد الفرنسيين، ويطلبون منهم التجمع في الجامع الأزهر، وصعد المؤذنون إلى مآذن المساجد يدعون المسلمين إلى المشاركة في حماية الدين بالقيام على الفرنسيين ، ووقفت النساء على سطوح المنازل، وعند طيقان البيوت يطلقن بأعلى أصواتهن صيحات مدوية، تعبيراً عن مشاعر الغضب على الفرنسيين<sup>(1)</sup>، كما قام أحد طلاب الأزهر وهو سليمان الحلبي بقتل (كلبير) خليفة نابليون على مصر.

ومن ذلك ما استرعى الشيخ محمد الفحام<sup>(2)</sup> ما ظهر عقب هزيمة يونيو 1967م من كتب تبشيرية غمرت مصر والعالم الإسلامي منها سلسلتان من هذه الكتب إحداهما بعنوان " في الحوار المسيحي الإسلامي" والأخرى بعنوان "دراسات قرآنية" وكان الهدف من إصدارهما ادعاء أن الإسلام امتداد للمسيحية ومحاولة إثبات أن القرآن الكريم يؤيد ألوهية وصلب المسيح. وأنه يقرر أن التوراة والإنجيل لم يلحقهما أي تحريف ، وادعاء أن محمداً ليس رسولاً، بل هو مسيحي مؤمن بالمسيحية، درس السريانية والعبرية ترجم عنهما "الكتاب المقدس" وهذه الترجمة هي القرآن الكريم وأنه رأى الناس منصرفين عن المسيحية فجاؤ ليردهم إليها ، فكان أن اتجه الشيخ محمد الفحام من أجل مواجهة هذه الأفكار التبشيرية لدعوة مجمع البحوث الإسلامية للانعقاد في مارس 1971م ، من أجل دراسة الموضوع ، حيث تم تفويض عدد من العلماء للرد على هذه الآراء.

كما كان للأزهر موقف حازم من مؤتمر السكان الذي عقد في سنة 1994م في القاهرة وكانت وثيقته تبيح الإجهاض والعلاقات الشاذة وقد حذو الأزهر عدد من المرجعيات منها عدد من علماء اليمن الذين وقفوا بقوة أمام مشروع مماثل باسم ( الجندر / النوع الاجتماعي) وأغلق بناءً على ذلك مركز الدراسات النسوية بجامعة صنعاء، والذي كانت ترعاه السفارة الهولندية، ووجدت فيه وثائق تبيح العلاقات الشاذة. وقد كان موقف علماء اليمن متطابقاً مع موقف اتحاد علماء المسلمين الذي يرأسه الشيخ القرضاوي في هذه المسألة والذي اصدر فتوى مماثلة مؤخراً<sup>(3)</sup>.

(1) فصول في الثقافة والأدب، المرجع السابق ، ص 112 .  
(2) الشيخ الدكتور محمد الفحام ولد في سنة 1894م بالإسكندرية نبغ منذ صغره وألف كتباً، وهو في المرحلة الثانوية، التحق بالأزهر وحصل على الدكتوراه من جامعة السوربون، تولى مشيخة الأزهر بقرار جمهوري سنة 1969م، وكان له مواقف مشهورة في مواجهة المد التبشيري. ظل في مشيخة الأزهر حتى سنة 1973م، شيوخ الأزهر، أشرف فوزي صالح، الشركة العربية للنشر والتوزيع- القاهرة، ط بدون، ج5/ص 5-12.  
(3) بيان هيئة علماء اليمن استنكاراً لمؤتمر النوع الاجتماعي (الجندر) المنعقد ع(139)يونيو 2013م صنعاء ص-6-8.

وفي سبيل الحفاظ على الهوية الإسلامية قام الأزهر بإيفاد أعداد من الدعاة والعلماء إلى قارات العالم المختلفة لنشر الدين والفكر الإسلامي الصحيح وقد بلغت إحصائيات هؤلاء الموفدين بين عامي 1982-1983م كالتالي:

|                |      |       |
|----------------|------|-------|
| الدول العربية  | 4815 | موفد  |
| أفريقيا        | 184  | // // |
| آسيا           | 81   | // // |
| أوروبا وأمريكا | 8    | // // |

هذا عدا البعثات التدريسية للأزهر في كثير من البلدان والتي تقيم لسنوات<sup>(1)</sup>.

## المبحث الثاني

### دور المرجعية في الحفاظ على وحدة الأمة ( الأزهر نموذجاً )

مثل الأزهر على مدى تاريخه الطويل مرجعيةً من أهم المرجعيات الإسلامية وقد كان لفتاوى شيوخه صدىً كبيراً في العالم الإسلامي كله، الأمر الذي جعله موثقاً للعلماء من شتى البلدان الإسلامية، ولذلك اكتسب شهرةً عالمية جعلته يتجاوز الموقع الجغرافي الذي هو فيه حتى صارت أوقافه غير مقتصرة على مصر فقط وإنما تعدت إلى كثير من بلدان العالم الإسلامي.

وكان لاستقلاله المالي والإداري أثر كبير في استقلالية مواقفه عن الموقف الرسمي للدولة؛ حيث كان شيوخه من كافة أنحاء العالم الإسلامي هم الذين ينتخبون شيخ الأزهر بعيداً عن تسلط الدولة وتدخلها.

ولذا فقد صار الأزهر الهدف الأول للاستعمار كونه يمثل عقبةً كؤوداً في وجه مخططاته التي كان يهدف منها إلى إحكام سيطرته وتحقيق أهدافه الاستعمارية.

وقد مهد الاستعمار لهذا الهدف بتركيز الغزو الفكري والحملات التشويهية على الأزهر بهدف إضعافه.

### المطلب الأول : التحديات التي تواجه المرجعية.

تعرضت المرجعية عبر تاريخها لأنواع من التحديات وكان أخطرها في العصر الحديث الغزو الفكري والاستعمار وكلاهما سعيًا لإضعاف دور المرجعية وعزلها عن المجتمع أو على الأقل احتوائها بحيث تصبح أداة طيعة لتمرير سياستهم<sup>(2)</sup>.

(1) الأزهر الشريف في عبده الألفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ص 300-303.  
 (2) قامت بريطانية أثناء احتلالها للهند بدعم فرق عديدة بهدف تمزيق وحدة المرجعية الإسلامية في الهند واستقطاب بعضها لدعم سياساتها كالكاديانية التي بررت الاستعمار بل وصل بها الأمر إلى اعتبار البريطانيين أولياء أمور المسلمين وطالبوا بطاعتهم على هذا الأساس - للمزيد راجع الكاديانية لإحسان الهي ظهير.

## أولاً : الغزو الفكري ودوره في إضعاف المرجعية.

يضع القائمون بالتنصير الأزهر ضمن خطة عملهم في مصر والشرق الإسلامي، فكانت مقترحاتهم بإنشاء مؤسسة تعليمية أخرى تنافس هذا المعهد العتيق وتقلص دوره، وقد ورد على لسان أحد المنصرين في مؤتمر القاهرة التنصيري سنة 1906م ، ذكر الأزهر وخطورته على مدى نجاح العملية التنصيرية في الشرق الإسلامي فيقول : " إن السُّنَّين من المسلمين رسخ في أذهانهم أن تعليم العربية في الجامع الأزهر متقن ومتمين أكثر منه في غيره، والمتخرجون في الأزهر معروفون بسعة الإطلاع على علوم الدين، وباب التعليم مفتوح في الأزهر لكل مشايخ الدنيا، خصوصاً وأن الأوقاف الكثيرة تساعد على التعليم فيه مجاناً؛ لأن في استطاعته أن ينفق على 250 أستاذاً، ثم تساعل عما إذا كان الأزهر يتهدد كنيسة المسيح بالخطر، وعرض اقتراحاً يريد به إنشاء مدرسة جامعة نصرانية تقوم بنفقاتها وتكون مشتركة بين كل كنائس الدنيا على اختلاف مذاهبها لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة، وتتكفل هذه المدرسة الجامعة بإتقان تعليم اللغة العربية.. وختم كلامه قائلاً: ربما كانت العزة الإلهية قد دعتنا إلى اختيار مصر مركز عمل لنسرع بإنشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير الممالك الإسلامية<sup>(1)</sup>.

والمستفاد من هذه التصريحات أن صاحبها يحقد على الأزهر ومكانته في قلوب جمهور المسلمين، ويضيره إقبال أبناء العالم الإسلامي على تلقي العلم في رحابه اعتماداً على كثرة أوقافه التي ينفق منها على التعليم فيه والدعوة إلى الله، فيقترح إنشاء ما يناهض الأزهر، ويغري باللاحق بهذا الجديد، بشرط أن يكون الجديد المقترح ربيب الكنيسة على اختلاف مذاهبها ، وتمخض عن هذه المقترحات إنشاء الجامعة وما هي هذه الجامعة؟ " إنها الجامعة الأمريكية للوقوف أمام الأزهر وخداع الناس بأسماء مفكرين أمثال طه حسين وعلي عبد الرازق وأحمد أمين وغيرهم بأنهم من ثمرات الازهر"<sup>(2)</sup>.

ويمكننا أن نجمل الأهداف التي نتجت عن العملية التعليمية في كل من الجامعة الأمريكية والمدارس التي أنشأها المستشرقون فيما يلي :

1. الدعوة إلى العلمانية في أوساط المسلمين وإبعادهم عن حقيقة دينهم.
2. تفسير التاريخ تفسيراً مادياً.
3. أن يحل الحرف اللاتيني محل الحرف العربي.
4. إحياء اللهجات المحلية تحت شعار (تسهيل اللغة).
5. دعم اللغات الأجنبية على حساب اللغة العربية.
6. تكريس الولاء الغربي والبطولات الغربية، وتهوين شأن النفوذ الأجنبي.

1 ( أقرأوا التاريخ قضية التغريب في مصر وأثرها على العالم الإسلامي، محمود ثابت أحمد ، دار الإيمان – الإسكندرية، ط1- 2008 م ص104.

2 ( المرجع السابق ص104.

7. محاولة تصوير الإسلام بأنه عائق للتقدم، ومعناه حصر الإسلام داخل المساجد وعزله عن الحياة العامة مختلف شئونها.
8. عزل المسلمين عن تاريخهم وماضيهم حتى لا يستمدوا العظمة والقوة منه.
9. محاكمة الإسلام إلى مفاهيم المسيحية في مغالطات واضحة.

#### ثانياً : الاستعمار وسياسة الاحتواء.

كان الأزهر الشريف عقبة كؤوداً في وجه قوى الاستعمار والتغريب، فهو الحارس الأمين لعلوم الشريعة واللغة العربية قروناً عديدة -ومازال- وهو موئل المسلمين عندما تحيط بهم الأزمات من كل جانب، فينطلق أبناؤه بقيادة علمائه الأجلاء يقاومون كل دخيل ويصدون كل مستبد ظالم، وقد استفاد الاستعمار البريطاني من التجارب السابقة، (فقد رأى كيف كانت حماقة الفرنسيين -حين استباحوا الأزهر- سبباً مباشراً من أسباب ثورة الشعب، ورأوا أن حملات التبشير التي تهاجم العقيدة الإسلامية مهاجمة مباشرة كانت تؤدي إلى عكس المطلوب منها، إذ تُنبه المسلمين للخطر وتزيدهم تمسكاً بالإسلام، ولكي لا يرتكب الاستعمار الإنجليزي هذه حماقة، فقد عمد إلى كيد بطيء الفعل، ولكنه مضمون المفعول، فقد فتح (دنلوب)<sup>(1)</sup> مدارس (حكومية) ابتدائية تدرس العلوم (المدنية) وتعلم اللغة الإنجليزية -لغة المستعمر- وتخرج الموظفين والكتبة في الدواوين التي يحتلها ويديرها الإنجليز، يقبضون رواتب تعد بالجنهيات لا بالقروش<sup>(2)</sup>.

وهكذا كان الاستعمار يهدف من وراء ذلك إلى القضاء على الأزهر وإذلال الأزهريين بطريقة ماهرة هادئة، فلا يسمع لهم صوت، وكان طبيعياً أن ينصرف الناس وسط هذه الإغراءات إلى مدارس الحكومة طمعاً في الواجهة الاجتماعية والدخل المادي الذي يضمن عيشاً هنيئاً في ذلك الوقت، بينما سلك المستعمر أسلوب التقدير في معاملته للأزهر الشريف، فقد تدخل (دنلوب) في شئون الأزهر وضيق عليه مادياً. رغم أوقافه الواسعة ذات الدخل الوفير. فقد وردت رسالة من (دنلوب) إلى شيخ الأزهر عام 1915م تتأسف فيه وزارة الخزانة لأن المبلغ الذي خصص للأزهر قليل، وقد وعد أن تصرف وزارة الخزانة مبلغ ثمانية آلاف جنيه للأزهر بشرط أن تنتقل أوقافه إلى وزارة الخزانة<sup>(3)</sup>.

ولا يحتاج ذلك إلى تعليق، فقد رسم (كرومر)<sup>(4)</sup> الخطة ونفذها (دنلوب) لنقل دور المعهد العتيق، والاستيلاء على الأوقاف التي رصدها المسلمون عبر العصور في سبيل الله لصرفها في تحصيل العلم، ومجال الدعوة الإسلامية.

(1) ولد في اسكتلندا عام 1860م وجاء إلى مصر منصرفاً في عام 1889م ثم عين سكرتيراً عمومياً للمعارف في 8 مارس 1871م ثم مديراً للمعارف من قبل كرومر - المندوب السامي لإنجلترا في مصر - واستمر دنلوب مديراً للمعارف حتى تاريخ 1930.  
(2) اقرأوا التاريخ - المرج السابق، ص 105.  
(3) اقرأوا التاريخ، ص 105-106.  
(4) إفلين اللورد كرومر (1841-1917) مندوب بريطانيا السامي في مصر من 1882-1906 من مؤلفاته التي هاجم فيها الإسلام (مصر الحديثة).

وذلك لأن الأزهر يعوق المسيرة السوداء للإنجليز في مصر، فلا تتجح خطة التغريب مادام هذا الصرح في شموخه وعزة علمائه، ويتبين لنا بوضوح وجلاء أن نظرة خاصة كانت ترقب الأزهر ودوره في المجتمع المصري على وجه الخصوص، والمجتمعات الإسلامية على وجه العموم، فقد كانت تقارير المعتمدين البريطانيين ترفع إلى حكوماتهم كل خطوة أو حركة في الأزهر العتيق، وأنه معوق لجهود بريطانيا في مصر، فلقد أكد اللورد (لويد) المندوب السامي في مصر هذه التصورات الاستعمارية حين قال في كتابه الذي ألفه سنة 1933م: (إن التعليم الوطني عندما قدم الإنجليز إلى مصر كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين، والتي كانت أساليبها الجافة القديمة تقف حاجزاً في طريق أي إصلاح تعليمي، وكان الطلبة الذين يتخرجون في هذه الجامعة يحملون قدراً عظيماً من غرور التعصب الديني، ولا يصيبون إلا قدراً ضئيلاً جداً من مرونة التفكير والتقدير، فلو أمكن تطويره - عن طريق حركة تتبعت من داخله هو لكانت خطوة جليلة الخطر، فليس من اليسير أن نتصور أي تقدم طالما ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه الجامدة، ولكن إذا بدا أن مثل هذا الأمل غير متيسر تحقيقه، فحينئذ يصبح الأمر محصوراً في إصلاح التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر نفسه أمام أحد أمرين، فإما أن يتطور وإما أن يموت ويختفي، على أن الخطوة الأولى التي تقوم على إصلاح الأزهر من داخله لها نتيجة عظيمة الأهمية والفائدة وإن تكن نتيجة غير مباشرة، فإنها تؤدي بالتدريج إلى اختفاء التعصب الديني الذي أحر مصر وتقدمها. بحسب زعمه. زمناً طويلاً.

أما الخطوة الثانية -وهي إصلاح التعليم اللاديني- فإن تأثيرها المباشر أقوى في إيجاد ما نحن في أشد الحاجة إليه، من إقامة العلائق الإنجليزية المصرية على أساس من التفاهم والتعاطف المتبادل<sup>(1)</sup> إن الذي يضير الاستعمار هو تمسك الأزهر وعلمائه بالإسلام، ويضيف "لويد". اعتزاز الأزهريين بدينهم إنه تعصب لان قناعتهم لا تلين في معاملة المعتصب، وكانت حركة الإصلاح منبعثه من الأزهر على يد الشيخ محمد عبده وأنصاره وتلاميذه، لكن التطوير الذي يريده الاستعمار هو القضاء على شموخه وتمسك طلبته وعلمائه بدينهم القويم، فيصبحوا دمية في يد المستعمر، ولم يكن المستعمر يهدف من وراء التعليم الحديث تثقيف الشعب المصري، أو تقدمه وإنما يعني به لكونه علمانياً : أولاً: لضرب الأزهر، ثانياً : ليفقد قيمته ويذوب وسط حملات الغزو الفكري والتغريب، ويندمج مع الأوضاع القائمة، ويسلب قوته وجهاده وكفاحه بعد التطوير، ولم يكن الاستعمار يريد إصلاح الأزهر بقدر ما يسعى لهدمه، كونه يمثل خطراً يهدد سلطانه.

(1) إقرأوا التاريخ، السابق نفس الصفحة.

## المطلب الثاني : دور الأزهر في التصدي للاستبداد السياسي:

قاد الأزهر المظاهرات ضد الجور والفساد والظلم، وكان لعلمائه اليد الطولى في رفع المظالم، والكلمة الفاصلة في حل كثير من المشكلات، فقد وقف الشيخ أحمد الدرديري<sup>(1)</sup> - رحمه الله - حين لجأ إليه الأهالي سنة 1200هـ شاكين مما حل بهم من جور بعض المماليك فانتنقض الشيخ للأمر، وتزعّم ثورة ضد الظالمين أفرعتهم ، وحملتهم على أن يستجيبوا لمطالبه<sup>2</sup>.

وكذا وقف الشيخ الشراقوي<sup>(3)</sup> شيخ الأزهر ومعه العلماء، ضد الولاة يدافعون عن حقوق الشعب، حتى أذعن الحكام<sup>(4)</sup> لهم وكان من القرارات التي وافقوا عليها:

- ألا تفرض ضريبة إلا إذا أقرها الشعب.
- أن ينزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم.
- ألا تمتد يد ذوي السلطان إلى فرد إلا بالحق والشرع.

وكان قبول الحكام لفتاوى علمائه يعرب عن تقديرهم للأزهر، واعترافهم بمكانته ومكانة علمائه، وفضلهم ، وأثرهم في المحيط المصري والعربي والإسلامي والعالمي، ولهذا لاذ الناس بشيوخه، وهرعوا إلى جنباته، وارتضوا حكم رجاله. ويرحم الله شوقي إذ يقول:

واخشع ملياً واقض حق أئمةٍ  
كانوا أجلاً من الملوك جلاله  
زمن المخاوف كان فيه جنابهم  
من كل بحر في الشريعة زاخر  
طلعوا به زهراً ماجوا أبحرا  
وأعزّ سلطاناً وأفخم مظهرا  
حرم الأمانة كان ظلهم الدّرا  
ويريكه الخلق العظيم غضنفرأ

وفي العصر الحديث استمر دعاء التغريب يخططون وينخرون في جسد الأمة حتى بعد خروج الاحتلال ظلت الأحزاب العلمانية حيث إن المحتل ترك من يقوم مقامه على أمر هذه التركة ينفذ ما لقن من ثقافة وفكر في مراكز التوجيه والتربية والسياسة والحكم والقضاء والجيش وشتى المجالات الاجتماعية الأخرى وسواء كان يشعر هؤلاء أو لا يشعرون، وإن الطبقة التي جاءت بعد عصر الثورة سنة 1952م قد فتحت الباب واسعاً لتنفيذ مخططات الإستعمار الغربي تحت مبرر تحديث وتطوير التعليم الأمر الذي طال التعليم الديني في الأزهر.

(1) الشيخ احمد الدرديري عالم متصوف من علماء القرن 11 هـ، تخرج على يديه الكثير من شيوخ الأزهر ، من مؤلفاته **الخريدة** و( المنظومة في التصوف)، توفي سنة 1209 هـ ؛ النور الأبهر في طبقات شيوخ الجامع الأزهر محي الدين الطعمي ط1 - 1992م دار الجيل بيروت ص19.

(2) المرجع السابق والصفحة.

(3) الشيخ الإمام عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشراقوي ولد سنة 1737م، بقرية الطويلة بمحافظة الشرقية ،بعد حفظ القرآن الكريم بقريته، التحق بالأزهر، تولى مشيخة الأزهر سنة 1794م، وفي أيامه احتل الفرنسيون مصر، توفي سنة 1812م. وكان له مواقف بارزة في التصدي للاحتلال والظلم ،شيوخ الأزهر، ج، 11/2-18.

(4) شيوخ الأزهر، ج، 2/15؛ مصر والإرهاب، مصطفى الحريري، مركز الدراسات الإسلامية - برمنجهام، ط3-1990م، ص83.

حيث قامت حكومة الثورة بإلغاء الوقف الأهلي ثم إلغاء المحاكم الشرعية عام 1955م وهو ما أثار معارضة قوية لدى الأزهر وعلى رأسهم شيخه محمد الخضر حسين<sup>(1)</sup> الذي استقال من منصبه احتجاجاً على هذه الخطوة.

وقد كان من آثار هذا القرار خلو فرص العمل الحكومي أمام خريجي الأزهر الدارسين للشرعة حيث كان من المحال أن يدخلوا في منافسة مع المحامين في الحصول على وظائف في إطار النظام الجديد الموحد للتقاضي باعتبارهم غير ملمين بالأسس الغربية للقانون المصري الحديث<sup>(2)</sup>، ثم جاء قانون تنظيم الأزهر رقم 103 لسنة 1961م ليجهز على ما تبقى من استقلالية للأزهر حيث أصبح تعيين شيخ الأزهر منوطاً برئاسة الجمهورية. وبذا أصبح شيخ الأزهر موظفاً حكومياً يجري عليه ما يجري على الموظفين من اتباع الأوامر وخضوعه للتأديب العزل<sup>(3)</sup>.

ومع هذا النوع من الاستبداد وفي ظل الحال التي كان عليها الأزهر فقد ظهرت مواقف للأزهر وعلماؤه تدل على رفضهم لذلك الواقع، من ذلك ما قام به شيخ الأزهر عبد الحلیم محمود<sup>(4)</sup> من مطالب بتطبيق الشريعة باعتبارها أوامر الله في القرآن الكريم ولم يكتف بالمطالبة فقط وإنما عمل بوصفه شيخاً للأزهر على إصدار قرار بتشكيل لجنة عليا لمراجعة التشريعات الوضعية وتعديلها بما يتفق مع مبادئ الشريعة. وعندما أفتى شيخ الأزهر (جاد الحق على جاد الحق) بمخالفة قرار وزير التعليم والخاص بمنع الحجاب في المدارس - للشريعة الإسلامية والدستور ورفض وثيقة مؤتمر السكان - المنعقد بالقاهرة - والتي تبيح الإجهاض والعلاقات الجنسية الشاذة - سارع أعضاء في الحزب الحاكم آنذاك بإعداد مشروع قرار يحد من سلطات شيخ الأزهر<sup>(5)</sup>.

ولكن عند الحاجة إلى غطاء شرعي لقرارات الحكومة فإنها تسارع إلى طلب الفتوى من الأزهر لتبرير هذه القرارات من ذلك طلب الرئيس السادات فتوى من الأزهر لتبرير زيارته إلى إسرائيل وعقد اتفاق سلام معها وجاء هذا الطلب بعد اتخاذ القرار بالزيارة<sup>(6)</sup>، وكذلك ظهور شيخ الأزهر وبابا الأقباط في مصر لإضفاء شرعية على الانقلاب على الرئيس المنتخب<sup>(7)</sup> وهذا يدل على أن الحكومات المتعاقبة كانت تتعامل مع الأزهر تعاملًا فعلياً (براجماتياً) لخدمة مصالحها فقط. وقد تكررت مثل هذه المواقف التي تدل على

(1) الإمام محمد الخضر حسين ولد سنة 1293 هـ، في تونس وأصله من الجزائر درس علوم القرآن ثم انتقل إلى جامع الزيتونة و تنقل بين حواضر العالم الإسلامي حتى انتهى به المطاف في القاهرة حيث استقر بها وتولى مشيخة الأزهر في 1952م، استقال من منصبه عدة مرات اعتراضاً على سياسات الحكومة في مصر، توفي سنة 1954م، شيوخ الأزهر، ج4/ص27-23.

(2) الدور السياسي للأزهر، ماجده علي صالح الربيعي، مركز البحوث والدراسات السياسية جامعة القاهرة، ط بدون 1992م، صص 222-224.

(3) المرجع نفسه، ص 225.

(4) الإمام الدكتور عبد الحلیم محمود ولد سنة 1910 م في قرية أبو أحمد، التحق بالأزهر ثم أوفد إلى السوربون حيث حصل على الدكتوراه، وتولى مشيخة الأزهر سنة 1973م بقرار جمهوري خلفاً للشيخ الفحام وكان له مواقف مشهودة في الدفاع عن الشريعة الإسلامية وتطبيقها، استقال من منصبه في 1974م اعتراضاً على تحجيم سلطة شيخ الأزهر، شيوخ الأزهر، ج5/ص15-34.

(5) قضايا دولية (244) مركز الدراسات الاستراتيجية اسلام آباد - باكستان، ع(244) مايو 1994م، ص8.

(6) الأصولية الإسلامية في العالم العربي رتشارد هير دكمجيان ترجمة عبد الوارث سعيد دار الوفاء المنصورة ط(1) 1989م، ص130.

(7) الرئيس محمد مرسي الذي تم انتخابه بطريقة نزيهة شهد بها العالم وهو أول رئيس منتخب منذ ثورة يوليو 1952م.

خضوع بعض شيوخ الأزهر لطغيان المستبدين وضغوطهم مثل ما حدث في العهد الملكي وأثناء صراع الحكام مع المعارضين السياسيين وكذا بعد ثورة 1952م وحتى العصر الحديث حيث ظهر الأزهر وكأنه ينحاز للاستبداد ووقع بعض شيوخه في الخطأ من حيث تقدير الواقع الذي نشب فيه الصراع بين المعارضين والحكام ووصل بالبعض من شيوخه إلى إصدار فتاوى تتعارض مع دور الأزهر مرجعيةً دينية حيث أصبح طرفاً من أطراف الصراع بدلاً من كونه مرجعاً يتحاكم إليه الطرفان الأمر الذي شق صف علماء الأزهر فانضم البعض إلى المعارضين والبعض الآخر بقي على ولائه للحكام وهو ما حدث مؤخراً عقب ثورة 25 يناير في مصر ، حيث ظهر شيخ الأزهر إلى جانب الانقلابيين واستشهد بعض علماء الأزهر في أثناء الهجوم على المعتصمين في رابعة العدوية من قبل حكومة الانقلاب. وكان هذا الأمر متوقفاً في ظل ضعف الأزهر بسبب :

1. إلغاء استقلالية الأزهر المالية والإدارية.
2. اقتضاء الحكام المستبدين للأزهر وإضعاف دوره في الحياة السياسية والاجتماعية.
3. رضوخ بعض مشايخ الأزهر للمغريات والتهديدات.
4. تسلط العلمانيين على أدوات ثقافة الجماهير وتكريسهم لمبدأ فصل الدين عن الدولة بحيث أصبحت ثقافة سائدة لدى معظم قطاعات الشعب.

كل هذه الأسباب تدعو إلى تأكيد الدعوة لإصلاح الأزهر واستقلاله وإعادة مكانته. ومع ذلك لم يبلغ دور الأزهر حيث لا زال يتمتع باحترام كافة مكونات المجتمعات الإسلامية بوصفها مؤسسة مرجعية حتى الذين تضرروا من موقف شيخه الأخير والداعم للانقلاب ضد الشرعية وقد ظهر ذلك خلال ثورات الربيع العربي حيث برز دور عدد من العلماء الأزهريين في تأييد هذه الثورات وتوجيهها، بل وصل الأمر بالبعض إلى إصدار فتوى بقتل بعض الحكام الطغاة المستبدين<sup>(1)</sup> كما أن الأزهر التزم الحياد من هذه الثورات ولم يصدر بياناً يندد أو يحرم الخروج على ولي الأمر في مصر كونه كان آنذاك مُسيطرًا عليه من قبل الحكومة ومع ذلك فقد قدم شيخه مبادرة بعد ثورة 25 يناير 2011م وقبل الانقلاب في مصر استجاب لها كل الأطراف السياسية والدينية حتى الأقباط مما جعل الأزهر يمثل عامل توحيد وتجمع لكافة القوى الوطنية. وهذا يدل على المكانة التي لا زال الأزهر يحتلها في نفوس الناس.

(1) فتوى القرضاوي بإباحة دم القذافي وقد قام الثوار بقتله بناءً على هذه الفتوى.

## الخاتمة:

ومما سبق يتبين لنا أهمية المرجعية في حياة الأمة ومدى تأثيرها في الحفاظ على الهوية الإسلامية. وكذا في مقاومة العدوان والاحتلال، ومحاربة الظلم والاستبداد. ولم تكن المرجعية لتحظى بهذه المكانة لولا إخلاص علمائها وحرصهم الشديد على أداء الواجب المنوط بهم مغلِّبين مصلحة الدين والناس على مصالحهم مما جعلهم يتعرضون لصنوف التنكيل والاذى .

ولم يكن الأزهر الشريف وعلماؤه الأجلاء بأقل حرصاً على مصلحة الأمة وهويتها والمنتبغ لتاريخه يجد أمثلة لا تحصى من المواقف العظيمة التي أسهمت في تقييم وتقويم مسيرة الحكام ورفع الظلم والاضطهاد عن الناس وقد ذكرنا بعضها ومن نتبنا لمسيرة هذه المرجعيات وجدنا أن الأسباب الرئيسية التي شكلت تلك المرجعيات واكسبتها الاحترام لعلمائها هي :

1. سعة علمهم الشرعي التي أهلتهم للقدرة على الاستنباط ومن ثم التصدر للفتيا .
2. قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون خوف أو تردد .
3. المبادرة في اتخاذ مواقف صريحة وواضحة فيما يعرض لهم .
4. الثبات على الحق والمشاركة الفاعلة بتنفيذ ما يدعون إليه وإن كلفهم ذلك أنفسهم .
5. قريهم من الناس وثقتهم بهم.

وقد انتهينا في بحثنا هذا إلى النتائج والتوصيات الآتية :

## أولاً النتائج :

1. أن هذه المرجعيات لم تكن وليدة الصدفة أو أنها تشكلت بمرسوم من حاكم أو حكومة وإنما شكلتها عوامل تجمعت في علمائها .
2. أن المرجعية لم تستمد احترامها ، وهويتها من حاكم أو سلطة ، وإنما استمدتها من مواقفها المستمدة من القرآن والسنة .
3. أن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون أكثر تأثيراً عندما يُصدر من العلماء .
4. أن هناك تناسباً طردياً بين قوة المرجعية واحترامها ورفعة الأمة وانتصارها .
5. أن ضعف المرجعية الدينية يخدم أعداء الإسلام ويفتح الباب للتعدد غير المحمود للمرجعيات وبالتالي إلى تعدد الفتاوى التي تفرق الأمة و تقود إلى التطرف في بعض الأحيان .
6. أن المرجعية تمثل جزءاً من الدفاع الذاتي الذي يتميز به الدين الإسلامي، فهي تظهر عند كل خطر يُهدد الأمة بغض النظر عن موقف الحكام من هذا الخطر .
7. أن حكم الناس على مصداقية المرجعية تنبع من مواقف علماء كل مرجعية .

## ثانياً: التوصيات

1. ضرورة الاهتمام بالمرجعية الإسلامية والعمل على استقلالها مالياً و إدارياً.
2. توسيع دائرة المرجعية لتتحول إلى اتحاد يضم كل العلماء المسلمين للبت في ما يهم أمر المسلمين جميعاً مع بقاء المرجعيات في كل بلد للبت فيما يخص الأمور الخاصة بهذا البلد.
3. الاستفادة من التقنيات الحديثة في التواصل بين علماء المسلمين مما يمكنهم من التشاور في أمور الأمة والبت فيها بسرعة كون بعض القضايا تستلزم سرعة البت فيها.
4. ضرورة تضمين المقررات الدراسية التعريف بالمرجعية وأهميتها الدينية واحترامها.
5. عدم تدخل الحكومات فيما يصدر عن المرجعية أو التأثير عليها بأي صورة كانت .
6. التأكيد على الشروط التي وضعها العلماء لضبط الفتيا و من يتولاها.

ونسأل الله التوفيق والسداد

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

## المصادر والمراجع

1. الأزهر الشريف في عيده الألف، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة .
2. الإسلام شريكاً، فريتن شيتبات، عالم المعرفة- الكويت، د.ط.-2004م.
3. الإسلام والأديان، مصطفى حلمي، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع . القاهرة، ط بدون.
4. الأصولية الإسلامية في العالم العربي، رتشارد هيردكمجيان ترجمة عبد الوارث سعيد دار الوفاء المنصورة ط (1) 1989م، ص 130.
5. أقرأوا التاريخ - قضية التغريب في مصر وأثرها على العالم الإسلامي، محمود ثابت أحمد ، دار الإيمان - الإسكندرية، ط1-2008 م.
6. بيان هيئة علماء اليمن استكاراً لمؤتمر النوع الاجتماعي (الجندر) مجلة المنتدى ع(139) يونيو 2013م، صنعاء.
7. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار إحياء الكتاب العربي- بيروت، ط2-1990م.
8. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم- القاهرة، ط بدون-1997م.
9. الحكومة الإسلامية، آية الله الخميني ، تعليق محمد أحمد الخطيب، دار عمار للنشر والتوزيع - الأردن، ط بدون -1988م.
10. حول حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، محمد بن سعيد بن رسلان، مكتبة المنار. القاهرة، ط2-2002م.
11. الدور السياسي للأزهر، ماجده علي صالح الربيع ،مركز البحوث والدراسات السياسية جامعة القاهرة، ط بدون-1992م.
12. السلوك لمعرفة دول الملوك، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية- القاهرة، ط3-2006م.
13. الشيعة والتصحيح ،موسى الموسوي، بدون دار ، 1988.
14. شيوخ الأزهر، أشرف فوزي صالح، الشركة العربية للنشر والتوزيع- القاهرة، ط بدون.
15. أصبح الأعشى في كتابة الإنشاء، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، دار الكتب المصرية- القاهرة، ط1-1922م.
16. صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر، عبد العزيز الشناوي، مطبعة دار الكتب القاهرة، ط بدون-1970 .
17. طبقات الشافعية الكبرى، أبو نصر عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي

- وعبد الفتاح الحلو دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، ط بدون - ت بدون.
18. عوائد الأيام، أحمد بن محمد المراقي، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، ط1-1917م.
19. عيون التواريخ، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: عفيف نائف حاطوم، دار الثقافة - بيروت، ط بدون-1996م.
20. فصول في الثقافة والأدب، الشيخ علي الطنطاوي، جمع: مجاهد مأمون، دار المنارة- جده. ط1-2007م.
21. تقرير قضايا دولية، مركز الدراسات الاستراتيجية إسلام آباد- باكستان، ع(244) مايو 1994م.
22. مصر والإرهاب، مصطفى الحريري، مركز الدراسات الإسلامية. برمنجهام، ط3-1990م.
23. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية المركز العربي للثقافة والعلوم - بيروت.
24. مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، تحقيق: حسنين محمد ربيع، د.ط - د.ت، د.د.
25. المنجد في اللغة والأعلام ط 28(1926) دار المشرق - بيروت .
26. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، تقديم: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1-1992م.
27. النور الأبهر في طبقات شيوخ الأزهر - محي الدين الطعمي ط (1) - 1992 دار الجيل - بيروت.